

ماذا حققت حركة اليقظة في القرن الرابع عشر الهجري

حققت حركة اليقظة الإسلامية في القرن الرابع عشر عددًا من الانتصارات التي غيرت مجرى المجتمع الإسلامي تغييرًا جذريًا وأعدته لاستقبال خطوات أكثر إيجابية على طريق الله تبارك وتعالى في خلال القرن الخامس عشر، هذه الخطوات والانتصارات يجب أن تكون موضع نظر ودراسة وتقدير الفاحصين لتطور هذه الأمة نحو الأصالة ونحو تحقيق رشدتها الفكري وتحررها من أغلال التبعية والتقليد والاحتواء والإذابة الذي عمد النفوذ الأجنبي على تحقيقها في محاولة لصهرها في أتون الأممية العالمية حتى يضع طابعها الخاص وذاتيتها الربانية القائمة بالتوحيد الخالص منذ أربعة عشر قرنًا لتكون مؤهلة لجعل البشرية على الحق وإضاءة طريق الله تبارك وتعالى أمامها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولنذكر أن النفوذ الأجنبي الذي فرض على المسلمين في القرن الثالث عشر الهجري والذي امتد إلى اليوم في صور مختلفة منها الاستعمار والحماية والوصاية والتبعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية في مراحل مختلفة من القرنين الثالث عشر والرابع عشر هو نوع فريد من التحدي الذي يختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً عما سبقه من مؤامرات الاحتواء والسيطرة التي عرفت أبان حملات التتار والحروب الصليبية، ومؤامرات الشعوبيين والزنادقة فإن أخطر ما حدث في هذه الحملات الاستعمارية الأخيرة هو أن النفوذ الأجنبي قد أجلى المسلمين عن منهجهم السياسي والاجتماعي والتربوي بأن فرض عليهم نظاماً وافدة، حملهم عليها حملاً وكان مدخله إلى ذلك هو تغيير هوية التربية والتعليم وفرض أنظمة تعليمية مدخولة كونت أجيالاً رفعتها النفوذ الأجنبي وحماها وسلم إليها مقاليد الأمور وضمن حين أنهى وجوده السياسي والعسكري أنها ستمضي على الطريق، ولكن الأمر لم يمضى كما ظن النفوذ الأجنبي ورجاله من دعاة التغريب والغزو الثقافي فإن حركة اليقظة الإسلامية سرعان ما اشتد عودها وأصبحت قادرة على كشف الزيف والرد على الاتهامات ودحض الشبهات بما أعاد اعتبارها في نظر الأجيال الجديدة التي حاول التغريب خداعها والتغريب بها لتنظر إلى أمتها وعقيدتها ولغتها ودينها وشريعتها نظرة الاستشراق والتغريب التي روج لها سنوات عديدة عن طريق المدرسة والصحيفة والثقافة الوافدة.

ومن أهم الحقائق التي تعد انتصاراً في هذا المجال:
أولاً: تصحيح المفاهيم فيما يتعلق بالقيم والشخصيات الإسلامية فقد توالى الحملات على (ابن خلدون) و(ابن تيمية) و(الغزالي) بينما أزعجت عبارات التكريم والتقدير لابن سينا والفارابي والحلاج والسهرودي واستمر ذلك زمناً طويلاً، بل أن الاستشراق قد تمكن من خداع بعض المبعوثين إلى الغرب ليقدموا رسائل وأطروحات تقدم هذه الشخصيات الكريمة على أنها لا تمتلك قدرًا كبيرًا من العلم أو الفعل على النحو الذي فعله الدكتور طه حسين في رسالة عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) التي قدمها واتهمه بالقصور والاضطراب متابعة لرأي دعاة المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي

كان يقودها اليهودي دوركايم والذي عاش طه حسين في حضانة فكره وتابعه في رأيه عن ابن خلدون، وبجيء اليوم من الشعبويين من يدعو إلى إعادة بعث هذا البحث المسموم ظنًا منه أنه بحث علمي صحيح ولقد استطاع الباحثون المسلمون أن يدحضوا وجهة نظر التغريب والاستشراق والشعوبية إزاء هذا العالم الكبير الذي حظى في السنوات الأخيرة بتقدير المنصفين من الباحثين الغربيين على أساس أنه قدم ثلاثة علوم وهي: تحليل التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد.

وكذلك فقد كشفت الأبحاث عن فساد وجهة الفارابي وابن سينا من الناحية الفلسفية (مع تقدير دورهم في الطب والعلوم) أما في الفلسفة فقد تبين أنهما كانا تابعين لمدرسة المشائين اليونانية وأنهما خضعا لمفاهيم الفلسفة اليونانية التي يقودها أرسطو وأفلاطون عن فكرهما لا يمنع مفهوم الإسلام الحقيقي وإن مفهوم الفلسفة اليونانية الذي قدماه قد رفضه الفكر الإسلامي الذي يقوم على مفهوم التوحيد الخالص.

كذلك فقد تكشف مفهوم (الحلاج) و (السهرودي) في الفكر الذي قدمه بأنه لم يكن من الفكر الإسلامي الأصيل ولكنه كان مفهومًا زائفًا استوحياه من الأفلاطونية التي كانت تمثل فكرًا مسيحيًا ويهوديًا ممتزجًا قبل الإسلام. وكذلك انكشفت أهداف الاستشراق والتغريب وحوصر الاستشراق بعد أن انكشفت سمومه.

(2)

ثانيًا: عظمة الشريعة الإسلامية: والكشف عن مقاصدها الحقيقية، وقد جاء هذا بعد أن سيطر النفوذ الأجنبي على العالم الإسلامي بالقانون الوضعي ووجب تطبيق الشريعة الإسلامية والاقتصاد الإسلامي لأول مرة بعد قرون من قيام هذا المنهج في عالم الإسلام، وكانت تلك الدعوى العريضة التي حاول بها كرومر وإفيجري وغيرهما من قراصنة الاستعمار تشويه هذه الشريعة بالادعاء بأنها شريعة صحراوية متأخرة عفا عليها الزمن، فإن بعضًا من الأبرار من المسلمين المثقفين الذين قصدوا إلى الغرب وحملوا معهم رسائل عن الشريعة الإسلامية إلى جامعاتها فآثروا مشاعر علماء القانون الغربيين الذين اعترفوا بفضل هذه الشريعة وعجبوا لعجز المسلمين عن تطبيقها. قد توالى هذه الاعترافات عن طريق مؤتمرات للقانون العالمي التي عقدت سنوات 1946، 1952م وبعدها اعترفت فيها جماعات رجال القانون العالمي بأن الشريعة الإسلامية هي شريعة مستقلة ذات كيان خاص تختلف عن القوانين الرومانية وأن لها جوانب غاية في القوة تستطيع أن تسعد البشرية وجاءت شهادة الفيلسوف الأيرلندي (برناردشو) غاية في الإنصاف.

وكشف مسيو لامبير - من كبار رجال القانون الفرنسي - عن عظمة الشريعة الإسلامية، وكيف أن الفرنسيين أخذوها من مذهب مالك، وإن اختلف الرأي عما إذا كان ذلك عن طريق الحملة الفرنسية التي جاءت إلى مصر أم عن طريق الجزائر وتونس وفي نفس الوقت بدأت ظاهرة الكشف عن عظمة القرآن بأنه من عند الله وقد أيقن بهذه الدعوة كثيرون في الغرب في مقدمتهم (موريس بوكاي).

ثالثًا: استطاع الشيخ مصطفى عبد الرازق أن يعلن رأيًا جديدًا في الفلسفة، بعد أن استطرد المستشرقون الغربيون الذين قدموا هذا العلم لطلابهم في الجامعة بالقول بأن الفلسفة الإسلامية الحقيقية تبدأ من الفقه وعلم الكلام، وأن منهم الإمام الشافعي في علم أصول الفقه يعد بمثابة المنطلق الحقيقي لهذا، أما مدرسة الكندي والفارابي وابن سينا فهي لا تمثل الفكر الإسلامي الصحيح، وبذلك أعيد اعتبار الإمام الغزالي الذي حملت عليه الفلسفة الحديثة ودعاتها لأنه أوقف تيار الفلسفة في الإسلام حين أخرج كتابه "تهافت الفلاسفة"، وكشف عن زيفهم في ادعائهم بأن الله تبارك وتعالى لا يعلم الجزئيات أو أن المادة قديمة على النحو الذي ضللت به دراسات الفلسفة عددًا من المثقفين المسلمين، وقد انكشف زيف كتابات كثيرة كرسائل إخوان الصفا والأعاني وأبي نواس. وتبين فساد المنهج الكلامي المعتزلي والفلسفي وعلت الدعوة إلى التماس منهج القرآن. رابعًا: ما كشفه الدكتور محمد أحمد الغمراوي من أن ما قدمه طه حسين بدعوى إنه مذهب ديكرت باطل وزائف، وأن طه حسين لم يقدم مذهب ديكرت على حقيقته، وقد سارع الأستاذ محمود الحصري بترجم كتاب مقالة في المنهج لديكرت ونشرتها المكتبة السلفية لتؤكد فساد ادعاء طه حسين، الذي كان يظن أن أحدًا لن يكشف خبيثته، ولقد كشفت الأبحاث في الأخير أن مذهب ديكرت مأخوذ من الإمام الغزالي ومن رسالة (المنقذ من الضلال) بل إن المرحوم الأستاذ عثمان الكعاك المؤرخ التونسي قد شاهد بنفسه في مكتبة السربون تراث ديكرت وقرأ تعليقه على رسالة المنقذ من الضلال بالفرنسية، وهو المعنى الذي توصل إليه المرحوم محمد فريد وجدي في الرد على كتاب الشعر الجاهلي عندما قال لطه حسين أن هذا المذهب: مذهب الشك حتى تصل إلى اليقين الذي يدعيه هو لديكرت هو مذهب إسلامي وأن الإمام الغزالي أول من طبقه.

خامسًا: ظل التراث الإسلامي مغمورًا، ومحجوبًا عن المسلمين، الذي دخلوا الجامعات التي قدمت لهم العلوم التجريبية والسياسية والاجتماعية على أنها علوم غريبة خالصة فقد بدأت الحلقة الأولى بفرانسيس باكون على أنه منشئ العلم التجريبي حتى جاء الإنصاف من علماء غربيين أمثال درابر، وكارليل، وجوستاف لوبون. الذين أعلنوا أن (باكون) هو تلميذ المسلمين وأن مثقفي الغرب هاجروا إلى الأندلس واستمعوا إلى علماء المسلمين وأن المنهج التجريبي هو من صناعة المسلمين (جابر بن حيان وابن الهيثم والبيروني وغيرهم) ثم جاءت الدكتورة سجريد هونكه فكشفت هذه الصفحة الرائعة في كتابها (شمس الله تشرق على الغرب).

وقد تبين دور المسلمين العظيم فيما قدموه من بدايات وإضافات لعلوم كثيرة ليست العلوم التجريبية والطبية والفلكية وحدها ولكن في علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية مما يعد في نظر المثقفين (الطابق الأول) للحضارة المعاصرة.

سادسًا: تكشف في السنوات الأخيرة مدى عظمة المخطوطات الإسلامية المجموعة عن المسلمين في مكتبات لندن وفرنسا وإيطاليا وهي تقد بحوالي مليون مخطوط، حتى لقد قيل أن تاريخ النهضة الإسلامية لا يمكن أن يكتب على وجه حقيقي إلا بعد تصوير ومراجعة هذه المخطوطات التي تتصل بكل علم وفن اشترك فيه المسلمون، والمعروف أن هذا التراث

المخطوط قد سرق من مساجد المسلمين ونقل إلى الغرب تحت تأثير ورعاية القناصل الأجانب وأن الغرب قد أفاد من هذا التراث فائدة ضخمة ظهرت في عديد من نظرياته الاقتصادية والقانونية بل أنه قد حجب عن المسلمين والعرب فإن عددًا من الباحثين ذهب إلى الغرب ليسأل عن مخطوطة معينة فمنع من النظر فيها.

سابقًا: ظهرت في السنوات الأخيرة دعوة إلى الأصالة في بناء العلوم على أساس إسلامي، فظهرت دراسات عن الاقتصاد الإسلامي وعلم النفس الإسلامي وعلم الاجتماع الإسلامي بعد أن اتضح فساد العلوم الغربية وعدم تجاوبها مع الفطرة الإسلامية وحاجة المسلمين إلى تقديم منهجهم القرآني الأصيل.

كما ظهرت في السنوات الأخيرة الدعوة إلى تقنين الشريعة الإسلامية وخطت خطوات واسعة فقد قامت جماعات من الفقهاء وعلماء القانون بإعداد القوانين الخاصة بالتجارة والحدود، والردة، وكان عمداء كليات الحقوق في الجامعات العربية قد نادوا بالتخلص من هذه القوانين المتباينة في البلاد العربية والرجوع إلى الشريعة الإسلامية باعتبارها إحدى خصائص ومقومات الأمة وأهم تراثها الثقافي.

كذلك فقد رد اعتبار الشخصيات المخلصة التي ضللتها النفوذ الاستعماري كالسلطان عبد الحميد وتوضحت حقائق كثيرة في تاريخ الإسلام في العصر الحديث بعد أن ظهرت بروتوكولات صهيونية وعدد من الوثائق وعرف الناس خداع وتضليل من أسمو أعلام الفكر وقادة النهضة من أمثال قاسم أمين ولطفي السيد وعلى عبد الرازق وطه حسين وجرجي زيدان وسلامة موسى.

الأستاذ/ أنور الجندي